**المحاضرة 07: التطوّر التاريخي لثقافة المجتمعات وصيرورة التغيرات الاجتماعية والثقافية**

* **مقدمة:**

تملك الثقافة خاصية التغيّر والتطوّر، بل إنها تتحرك عبر الزمان والمكان، كما تشهد ثقافة المجتمعات الكثير من التحولات ضمن السياق التاريخي الذي تنتج فيه هذه الثقافة.

ولذلك يعد الإرث الثقافي انتقل إلينا من الشعوب البدائية، ميراثا مشتركا لجميع الأمم والشعوب، ففي التاريخ الثقافي للإنسان كانت هناك نقاط تحوّل ومنعطفات، أثرت في تغيّر شكل الحياة، وأساليب العيش فيها، وأثرتها بأفكار وعادات وأعراف جديدة.

فالثقافة بمجموعها تشكل وحدة متكاملة تتناول التراث المادي والفكري للشعوب المختلفة ضمن مراحل مختلفة من تاريخ الإنسان، فهي ترسم خط تاريخ المجتمعات الفكري منذ البدايات الأولى لتشكل المجتمعات إلى أن نصل إلى المجتمعات الحديثة، كما تبرز العناصر الثقافية المشتركة بين مختلف الشعوب والأمم، وتلقي الضوء على جوانب عديدة يعيشها الإنسان في حياته اليومية.

1. **الإنسان وعلاقته بالثقافة:**

تتحدد علاقة الإنسان بالثقافة من خلال كونه كائن عضوي حي يعيش في مجتمع تسوده نظم وانساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، يقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محددا ولذلك فهو الكائن الوحيد الحامل للثقافة.

والحال أنّ كل فرد من أفراد ثقافة ما يتضامن بشكل وثيق مع ثقافته كتضامن المسافر المثالي مع قطاره، فنحن منذ ولادتنا تعمل الكائنات والأشياء المحيطة بنا على تركيب جهاز معقد من المقاييس والمراجع في دواخلنا، بحيث يشكل هذا الجهاز نظاما متكاملا من السلوكات والبواعث والأحكام الضمنية، ثم تأتي التربية لترسّخ هذا النظام بما تقترحه علينا من رؤية باطنية لصيرورة الثقافة أو الحضارة من الناحية التاريخية، ونحن ننتقل حاملين معنا هذا النظام المرجعي.([[1]](#footnote-1))

إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك زمام الاتصال من خلال اللغة، والوحيد الذي يملك العديد من طرق التربية أو التنشئة الاجتماعية، كما أن عقل الإنسان نفسه قد نشأ وتطور أثناء الصراع الطويل في سبيل الملائمة بينه وبين البيئة التي يعيش فيها، وطرق التفاعل التي ابتكرها ليعيش فيها، أي انه تطور في سبيل الحفاظ على البقاء، ويبدو أن الثقافة تلعب دورا مهما في حياة الإنسان كعضو في المجتمع، كما تساعد الثقافة على التمييز بين فرد وآخر، وبين جماعة وأخرى، وهي التي تؤكد الصفة الإنسانية في الجنس البشري، وهي المعبّرة عن مدى إنسانية الإنسان.

أما عن تأثير الثقافة، فهو قويّ وفاعل في الحفاظ على النسق الاجتماعي السائد ويتجلى ذلك من خلال ما يلي:([[2]](#footnote-2))

* توفر الثقافة للفرد صوّر السلوك والتفكير والمشاعر التي ينبغي أن يكون عليها ولاسيما في مراحله الأولى، حيث ينشأ على قيّم وعادات تؤثر في حياته، بحسب طبيعة الثقافة التي عاش فيها.
* توفر للفرد المعاني والمعايير التي يستطيع أن يميّز في ضوئها ما هو صحيح وما هو خطـأ.
* توفر الثقافة للأفراد تفسيرات جاهزة عن الطبيعة والكون، واصل الإنسان، ودورة الحياة.
* تنمي الثقافة الضمير الحي عند الأفراد، ولذي يصبح فيما بعد الرقيب القوي على سلوكاتهم ومواقفهم.
* تكسبه السلوكات السليمة في إطار السلوك المعترف به من قبل الجماعة، وتوفر له الشعوب الولاء والانتماء، فتربطه بشعور واحد مع جماعته، التي تتميز عن الجماعات الأخرى.

لقد أكدّ علماء الأنتروبولوجيا أنّ السلوك الذي ينتقل عن طريق التعلّم من جيل إلى جيل يسمى بالثقافة، والإنسان وحده هو الذي يملك زمام الثقافة، وإن لم تكن بهذا التعقيد التي هي عليه الآن، حيث تظهر اليوم الثقافة المادية، وغير المادية، وكلاهما ينتظمان حول إشباع الحاجات الرئيسية الأمر الذي يعطي نظمه الاجتماعية التي هي جوهر الثقافة لتكون نمطا يميّز كل مجتمع على حدى.([[3]](#footnote-3))

إنّ التطور الذي طرأ على مفهوم الثقافة، هو سجل هام ومتواصل من ردود الأفعال لهذه التغيرات في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية، ويبدو أن هناك تنافسا بين من ينظر إلى الثقافة على أساس أنها مجموعة من القيم والمعايير والرموز، وبين من ينظر إليها فيربطها بنمط الحياة الكلي لمجتمع ما، والتي تربط بين أفراده، وتوجهات هؤلاء الأفراد في حياتهم، وعلاقتهم فيما بينهم.

1. **التطور التاريخي لثقافة المجتمعات:**

يمثل ظهور رأي دوركايم عالم الاجتماع الفرنسي، طورا جديدا في التاريخ الطبيعي والذي يمكن تفسيره من خلال مبادئ "البيولوجيا العامة" الذي ألّفه، وهو ما يؤكده علماء البيولوجيا كذلك، إذ أنّ التطور الذي حصل ولا يزال حاصلا، قد اشتمل على عدد من النّقلات التي وصفت "بالثورية" في طريقة تنظيم المعلومات، ونقلها من جيل إلى جيل تمثل إحدى هذه النقلات تطوّر اللغة والثقافة،وزيادة تعقد الحياة الاجتماعية والاقتصادية.([[4]](#footnote-4))

ويظهر التطور التاريخي لثقافة المجتمعات قديما وحديثا من خلال تطور اللغة، ومن هنا يبرز لماذا لا نملك لغة واحدة بل لغات كثيرة مختلفة، كما تنزع الحدود اللسانية إلى أن تكون حدودا اجتماعية، ويلاحظ في المجتمعات التي لا تشكل دولا، أن التجمعات الاجتماعية الأكبر حجما من القبائل أو الأمم، تتمايز عن بعضها بجد لغوي، وإذا كانت اللغة اختراعا صورتها محليا في كل أنحاء العالم، فالقدرة على اللغة هي قدرة فطرية لكنها تحمل سمات التغير والتطور، وهو ما يفضي إلى أن تكون حدود عرق-لسانية([[5]](#footnote-5)) بين مناطق العالم.

ويؤكد ليفي شتروس([[6]](#footnote-6))، أنّ مجتمعاتنا وجدت لكي تتطور وتتغير، فالمجتمعات التي ننعتها بالبدائية لها تاريخ كسائر المجتمعات الأخرى، وتحكمها سنن التغيير، وهذا هو المبدأ الحاكم لبنيتها وطريقة عملها، كما تبدو بنيتها الداخلية بشكل أقوى، وتقدم ديكورا أغنى من ذاك الذي تقدمه بنية الحضارات المعقدة.

إلا أن التطور لا ينفك يحمل مسائل داخل صيرورته حسب شتروس، ذلك أن الثقافة مجموع ما يربط بين أناس ضمن حضارة ما وبين العالم من صلات، في حين أنّ المجتمع يتشكل على نحو خاص، من خلال العلاقات التي ينسجها البشر فيما بينهم، والثقافة تنتج النظام، ما يعني زراعة الأرض وبناء المنازل، وظهور المنتوجات والصنائع، إلا أن هذه المجتمعات المتحضرة تنتج الكثير من القصور الحراري، وتهدر قواها، وتنهك نفسها في النزاعات الاجتماعية، والصراعات السياسية، وفيما تخلقها عند نشوئها، تجد نفسها تتآكل على نحو لا رجعة فيه، إلى الحد الذي يمكن فيها القول أن هذه المجتمعات تفقد تدريجيا عمودها الفقري، وقد تنفجر ويصبح أفرادها مجرد ذرات مجهولة الهوية لا شيء يمكن التمييز فيما بينها.([[7]](#footnote-7))

1. **صيرورة التغير الاجتماعي والثقافي:**

يكثر الحديث عن التغير الاجتماعي في الأدبيات الإنسانية، حيث تختلف الاتجاهات والتفسيرات في تحديد عمليات التغير هذه، إلا أن هذه التغيرات تشترك في نقاط متقاطعة منها أن التغير الاجتماعي يشمل جميع قطاعات المجتمع أو إحداها، حيث يتحول المجتمع نفسه من التجانس إلى اللاتجانس، أو يحصل تحوّل شامل من الأجزاء البسيطة إلى المعقدة والكبيرة، كما أن صيرورة التغير لا تحصل في فترة زمنية وجيزة، بل تأخذ فترة طويلة قد تأخذ سنينا وأجيالا ممتدة، بسبب المعوّقات الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك السياسية والثقافية لحدوث عمليات التطور تلك.

وقد حدد "جارلس دوران" العوامل التي تؤثر في عمليات التغير الاجتماعي من خلال عدة نقاط:([[8]](#footnote-8))

**أ- الوراثــة:** أي انتقال الصفات من الأصل إلى الفرع كما هي دون تغيير.

**ب-التحـوّل:** أي أن كل أفراد المجتمع يتشابهون، ولكن لا يتماثلون كما لو كانوا نسخة متطابقة.

**ج- التوالـد:** أي أن ما يولد من أناس أكثر مما يقدر له البقاء، فالطبيعة تسرف في الإنجاب وفي الانفناء.

**د- التنازع على البقاء:** وهو عامل مطرد التأثير غير منقطع الفعل فالإنسان يسعى في الرزق، ويجاهد غيره للحصول على ضروريات الحياة.

**هـ- البقاء للأصلح:** فالأفراد الأقوياء أكثر احتمالا للبقاء في الحياة.

ويرتبط التغير الاجتماعي اليوم بمسألة التنمية، والتي أصبحت في قلب عمليات التغير التي تحصل لدى المجتمعات اليوم، حيث يستدل بمفهوم التنمية محاولات الإنسان تغيير الظروف والواقع لتحقيق غايات مقصودة، وهنا تظهر قدرات الإنسان أو الجماعات على التخطيط التي تدعمها السياسات الحكومية العامة، وكذا اختيار الأساليب المنهجية، والتنظيمات أو المؤسسات التي تقوم بشؤون التنمية في مختلف مجالاتها.

إن التنمية هي ذلك التغيير المخطط والمقصود بهدف تحسين الحياة، وتطويرها داخل مجتمع ما، للوصول إلى التطور والرفاهية، بالاعتماد على عملية المساعدة الذاتية، ومشاركة سكان المجتمع أنفسهم، وهو التغيير الذي يتناول كافة أبنية المجتمع، ويشمل جوانبه المادية والمعنوية([[9]](#footnote-9))، لكن مستويات التنمية تختلف في الحقيقة باختلاف المجتمعات ما بين المتقدمة والدوّل السائرة في طريق النمو، والأخرى الأقل نموا.

* **التغير الثقافي وصيرورته:**

يحدث التغير على ما ليس فرعا أو وجها من وجوه الثقافة بمحمولها المادي وغير المادي، فقد يتم تحوير أو تطوير بعض الصفات الثقافية القديمة دون التخلص منها بالضرورة، وكذا يتم اكتساب صفات ثقافية جديدة ومركبة بما يوحي بحدوث عمليات تغير داخل الثقافة ذاتها.

وتظهر عملية التغير الثقافي بشكل واضح في معرفتنا لمكونات الثقافة، حيث يعد التغيير الاجتماعي جزءا من التغيير الثقافي أو جانبا منه، لأن الأوّل يتضمن تغييرا في بناء المجتمع ووظائفه، أما الثاني فيشمل كل أنواع التغير، في نظم المجتمع، وفي العلم والمعرفة، وفي الأفكار والفن، وفي المكان والتكنولوجيا وغيرها.([[10]](#footnote-10))

ويمر التغير الثقافي بثلاث مراحل أساسية:([[11]](#footnote-11))

* **الاختراع والإبداع:** ويعني بها القابلية الحضارية على خلق شيء جديد، إما أن يكون ذاتيا صادرا عن تفكير الإنسان، وإما أن يكون ذا قابلية أجنبية بنيت عليها أو أضيفت لها إبداعات خلاقة، وأصبحت إبداعات مبنية على استعارات ثقافية.
* **التراكــم:** يشير إلى اكتساب الإبداعات السابقة، وإضافة إبداعات جديدة أخرى إليها.
* **الانتشار:** أي نمو الثقافة وتغيرها من خلال الانتشار الذي يكون بواسطة وسائل الاتصال والتجارة والزواج، وذلك من خلال التغير الحاصل في سلوك الأفراد نتيجة الاحتكاك الثقافي بين الثقافات المتباينة في الصفات والعناصر فتحل استعارات ثقافية.

ويمكن القول أخيرا أن التغير الثقافي هو ركيزة أساسية لنماء وتطور البشرية، ودخول أي حضارة إلى الركب العالمي، وهو ما يفرض مسألة قبول الآخر، والاعتراف بالثقافات الأخرى المغايرة، وذلك في سبيل التعاون الإنساني والتعارف فيما بين الثقافات والحضارات، كما تتضافر التقليدية مع المعاصرة والحداثة لكسر الفروق الرمزية، والاستفادة من المعطيات الثقافية المتغيرة في مراحل بناء هذه المجتمعات، وخاصة منها السائرة في طريق النمو التي تحتاج إلى حركية التغير الاجتماعي والثقافي، دون أن تنكر موروثها الثقافي الذي عليه أن يتمازج مع حركة العصر، والتطور الحاصل، والانفتاح على العالم الخارجي يوحي من الثقافة المتجذرة والأصيلة،ويصدق الحق سبحانه وتعالى في قوله:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾. ([[12]](#footnote-12))

1. **()**- كلود ليفي شتراوس ، مقالات في الإناسة، مرجع سابق، ص235. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()**- عيسى الشماس ، مرجع سابق، ص88. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()**- محمد عاطف غيث: دراسات في علم الاجتماع-نظريات وتطبيقات، (د.ط)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1985، ص66. [↑](#footnote-ref-3)
4. **()**- روبير دونبار وآخرون: تطوّر الثقافة –رؤية في ضوء منهج البحوث المتداخلة، ترجمة: شوقي جلال، ط1، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص292. [↑](#footnote-ref-4)
5. **()**-روبير دونبار وآخرون، المرجع السابق، ص229. [↑](#footnote-ref-5)
6. **()**- كلود ليفي شتروس: الأنتروبولوجيا في مواجهة مشاكل العالم الحديث، ترجمة: رشيد بازي، ط1، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 2019، ص85. [↑](#footnote-ref-6)
7. **()**-كلود ليفي شتروس: الأنتروبولوجيا في مواجهة مشاكل العالم الحديث، مرجع سابق، ص88. [↑](#footnote-ref-7)
8. **()**- إبراهيم عيسى عثمان، قيس النوري: التغير الاجتماعي، (د،ط)، دار الشروق، عمان، 2009، ص340. [↑](#footnote-ref-8)
9. **()**- محمد فايز عبد سعيد: مشاكل التنمية في العالم الثالث، (د،ط)، دار الوطن، الرياض، 1984، ص87. [↑](#footnote-ref-9)
10. **()**- محمد الدّقس: التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، ط2، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، 1996،ص61. [↑](#footnote-ref-10)
11. **()**- معن خليل : التغير الاجتماعي، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004، ص74. [↑](#footnote-ref-11)
12. **()**- سورة الحجرات، الآية: 13. [↑](#footnote-ref-12)